ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

المقاربة الفلسفية للظاهرة الدّينية في فكر"محمّد عابد الجابري"

The philosophical approach to the religious phenomenon in the thought of "Muhammad Abed Al-Jabri"

د. نعيمة بن صالح [1]

[1] كلية العلوم الإنسانية (جامعة الجزائر 2)، naimabensalah1@gmail.com

تاريخ الاستلام: 22 / 06 /2022 تاريخ القبول: 25 / 12 / 2022 تاريخ النشر :2023/06/30

Abstract:

In this scientific article, we try to show the position of the Moroccan thinker “Mohammed Abed Al-Jabri” from the religious text through his philosophical vision of the religious phenomenon in view of its nature on the one hand, and through the method he applied in reading it (Arabic and Western curricula), while identifying the most important results that he reached Through his interpretive reading of the religious phenomenon, especially since he aims behind this to study a scientific and objective study, away from and bypassing the various ideological interpretations of the text. In this study, we stopped with an investigative approach at the nature of the Qur’an in its conception, and at the methods it adopted, by linking it to the causes of revelation and the Prophet’s biography, and to the issue of abrogation in the Qur’an, or to the issue of the arrangement of Qur’anic surahs, all of which represent its interpretive reading of the text.

Keywords: religious text, religious phenomenon, structural approach, historical approach, Quranic stories;

المؤلف المرسل: د. بن صالح نعيمة
البريد الالكتروني: naimabensalah1@gmail.com

الملخّص:

نحاول في هذا المقال العلمي أن نبيّن موقف المفكّر المغربي **"محمّد عابد الجابري"** من النص الدّيني من خلال رؤيته الفلسفية للظّاهرة الدينية بالنّظر إلى ماهيتها من جهة، ومن خلال المنهج الذي طبّقه في قراءتها(المناهج العربية والغربية)، مع تحديد أهمّ النّتائج التي توصّل إليها من خلال قراءته التأويلية للظاهرة الدينية، خاصة وأنّه يهدف من وراء ذلك إلى دراسته دراسة علمية وموضوعية، بعيدا عن مختلف التّفسيرات الإيديولوجية للنّص، وتجاوزا لها. وقد توقّفنا في هذه الدّراسة بمنهج استقصائي عند طبيعة القرآن في تصوّره، وعند المناهج التي اعتمدها، من خلال ربطه بأسباب النّزول وبالسّيرة النّبوية، وبمسألة النّسخ في القرآن،أو بمسألة ترتيب السّور القرآنية، وهي كلّها تمثّل قراءته التّأويلية للنّص.

الكلمات المفتاحية: النّص الديني؛ الظّاهرة الدينية؛ المنهج البنيوي؛ المنهج التاريخي؛ القصص القرآنية.

1. مقدّمة:

تتحدّد المقاربة الفلسفية للظّاهرة الدينية من خلال قراءة "محمد عابد الجابري" التّأويلية للقرآن، والتي يريد من خلالها تقديم رؤية جديدة عنه، تختلف عن كلّ التّفسيرات السابقة وما أنتجته من شروح للنّص اعتمادا على الأحاديث النّبوية والقراءات التّوضيحية أو التّأويلات(الظّاهرة والباطنة) أو المناهج(الاستقراء والاستنباط) أو النّسخ، أو الأخذ بوحدة القرآن. وهو يستند في مشروعه النّقدي هذا إلى مرجعية عربية أصيلة، حيث يعتمد على تفاسير من التّراث. كما يستند إلى مرجعية فلسفية غربية، يحاول من خلالها تقديم قراءة حداثية جديدة للنّص تقوم على منهجية التّأويل، وتحاول ربط النّص بسياقه التاريخي والاجتماعي(توظيف المنهج التّاريخي)، وتحاول عقلنة النّص الديني(توظيف المنهج البنيوي). إنّها دراسة تستند إلى مناهج بعضها يعود إلى أصول عربية وأخرى غربية، فهي تستند على أساس أنّ القرآن

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

يفسّر بعضه بعضا، مع مراعاة الظّروف التاريخية لزمان نزول القرآن والحالة الاجتماعية لمكان النّزول، إنّه المنهج التاريخي في قراءة النّص، وهي منهجية قراءة النص "جعل المقروء معاصرا لنفسه ولنا"، أي أنّه يحاول قراءة القرآن قراءة تاريخية (وفق ظروف معيّنة)، وقراءة معاصرة حداثية، محاولا بذلك أن يتجاوز كلّ القراءات الحرفية والإيديولوجية والسّياسية للنص.

ويقترح بمقابل ذلك، قراءة جديدة محايثة للنّص القرآني في ذاته ولذاته(توظيف المنهج البنيوي)، ثمّ يفتحه على محيطه(ترتيب النّزول)، ومراعاة معهود العرب اللّغوي والحضاري(المقاربة التاريخية للنّص). والهدف من ذلك، هو تجديد الدّين عقيدة وشريعة، انطلاقا من الأصول مباشرة، والعمل على تحيينه، أي جعله معاصرا لنا وأساسا لنهضتنا المستقبلية.

هذا، ويتصوّر "الجابري" الخطاب القرآني خطابا مفتوحا للفهم وللتّفسير شريطة الاحتكام إلى مجاله التّداولي(اللّغوي والاجتماعي)، وإلى إعمال العقل (فهم معقول للقرآن)، معتمدا على آليات معيّنة: آلية التّفسير، آلية الشّرح، آلية التّقسيم، وآلية الفحص النّقدي للنّص: إنّها منهجية **النّقد البنيوي** لسور القرآن وتحليلها في ذاتها، رصد مختلف العلائق القائمة بين مكوّناتها، والطّرح التاريخي القائم على رصد مسار التّكوين وتكوّن الدّعوة المحمّدية في محيطها التّاريخي والسّوسيولوجي، وتتّبع أسباب نزول القرآن وتاريخيتها في ترتيب السّور ترتيبا جديدا. بالإضافة إلى تخليص الخطاب القرآني من عوائق البطانة الإيديولوجية وفائض التّأويلات التي تخترق مجاله التّداولي، وتبعده عن فضاء اللّغة العربية، على مستوى الإرسال ومستوى التّلقي.

بناء على ما سبق ذكره، تكون الإشكالية الفلسفية لهذه الدّراسة: **كيف يتصوّر "محمد عابد الجابري" الظاهرة الدّينية وكيف كانت قراءته لها بمناهج عربية وغربية متجاوزا بذلك مختلف التّفسيرات الإيديولوجية؟ وهل كانت هذه القراءة قراءة موضوعية وعلمية للظّاهرة الدينية؟**

2. قراءة في محيط الظّاهرة الدينية.

يحاول "الجابري" في تعريفه للقرآن قراءته في سياق علاقاته الخارجية مع بعض الدّيانات السابقة عن الإسلام، وهي **قراءة تاريخية** تخصّ محيط القرآن الخارجي، ليشير إلى وجود وحدة الأصل في الدّيانات السماوية الثلاث، فهو يوظّف مثلا بعض المصادر النّصية من القرآن ومن الكتب السماوية الأخرى(التوراة والإنجيل خاصة) ويشير إلى أنّ نبوءة محمد-ص-: "النّبي الأمّي" تحضر في التوراة حيث تنبّأ بها عيسى عليه السلام. وينتهي إلى نتيجة مفادها أنّ النصارى بمفردهم (لا اليهود ولا المسيحيين) هم الذين آمنوا بالنّبي الأمّي قبل بعثته وبعدها، والذين يعتبرهم "المسيحيون الرّسميون"(الكاثوليكية والأرثوذكسية والأنجليكانية) فرقة مبتدعة. أما النّصارى عند علماء الإسلام فهم المنحدرون من الحواريين(صحابة عيسى عليه السلام) الذين أيّدوه ونصروه، وهـم الذين تحدّث عنهم القرآن في قوله تعالى: **" يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ."**[1]

ويعرض "الجابري" لبعض الفرق الدّينية المرتبطة بالدّيانة المسيحية، وهي الأبيونية(الفكرة كانت متواجدة زمن نزول الوحي المحمّدي) والآريوسية التي نجدها حاضرة في السّيرة النبوية ما يدلّ بالقطع على أنّ الرسول-ص-كان مهتمّا بأتباع هذه الفرقة. لذلك عرفت الدّعوة المحمّدية عدّة فرق دينية تنتمي إلى **"الذين قالوا إنّا نصارى"** في الجزيرة العربية منها الأريوسية والأبيونية. إلى جانب فرق أخرى مثل النّسطورية نسبة إلى مؤسّسها نسطوريوس الذي ظهر في أنطاكية شمال سورية. إنّ

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

ربط النبوّة المحمّدية بهذه الفرق الدّينية السابقة عن الإسلام هو أمر ضروري لفهم ظاهرة النبوة ودلائلها كما يرى "الجابري"[2].

هذا عن علاقة النّبوة المحمّدية بالدّيانات السابقة عن الإسلام، أما عن الدّعوة المحمّدية وعلاقاتها الخارجية، فإنّ "الجابري" يحاول قراءة القرآن بالسّيرة النبوية وما يرتبط بها من علاقات خارجية، مثل علاقة الدّعوة المحمّدية بملك الحبشة في السنة الخامسة للنبوة، علاقة الهاشميين بالحبشة قبل الإسلام، حضور الآريوسية في الإمبراطورية البيزنطية مع مراسلات النبي-ص- لملوك بيزنطة وغيرها. إنّها أحداث تاريخية يوظّفها "الجابري" عن سيرة النبي –ص- بالاعتماد على المرويات التاريخية، وبالاعتماد على بعض النصوص القرآنية، ليربط بمنهجه التاريخي بين الدّعوة المحمّدية وهذه السّيرة.

3. طبيعة الظاهرة الدّينية.

يأتي "الجابري" في مشروعه الرّامي إلى قراءة معاصرة للقرآن ليؤكّد قدسية النّص في خطّه الفكري النقدي واعتبار منطقة القرآن مختلفة عن التراث ومتعالية عليه، لكون القرآن نصّا مطلقا ووحيا إلاهيا. فهو يميّز في قراءته للنّص بين القرآن والتّراث، فالأوّل ليس الثاني، حيث يقول: **"لقد أكّدنا مرارا أنّنا لا نعتبر القرآن جزءا من التّراث، وهذا شيء نؤكّده هنا من جديد، وفي نفس الوقت نؤكّد أيضا ما سبق أن قلناه في مناسبات سابقة من أنّنا نعتبر جميع أنواع الفهم التي شيّدها علماء المسلمين لأنفسهم حول القرآن ... هي كلّها تراث."**[3]

إنّه يميّز بين القرآن (وهو الوحي الإلهي المنزّل على محمّد-ص-بلغة القوم) والتّراث (باعتباره منتوجا بشريا). وعلى الرغم من الطابع المتعالي للخطاب القرآني، إلا أنّه موجّه إلى الناس من أجل إقناعهم في أمور دينهم ودنياهم، وحملهم على الانضباط والعمل بها. لذلك فهو تجربة اجتماعية وسياسية وإرشادية ودعوية.

1.3. التّعريف بالقرآن.

يورد "الجابري" في مقدّمة كتابه: "مدخل إلى القرآن الكريم"، بعض التّعريفات حول القرآن، منطلقا من تلك الشائعة لدى عامة الناس، مثل: أ- وهو **"النّص الذي يقرأه المسلمون ويكتبونه في مصاحفهم"**، فهذا النّوع من التعريف يشير إلى ما هو حاضر في المجال البصري أو الذّهني للمخاطب، وهو تعريف موضوعي حيادي لا يضيف من عنده أيّ عنصر على المشار إليه كما هو معطى للمشاهد. ثم إنّه تعريف يرسم صورته كما هي في ذهن المسلم وكما ورثها في محيطه الثقافي.ب-: **"إنّه كلام الله تعالى، نزل به جبريل عليه السلام على نبيّنا محمد-ص-، وهو المكتوب في المصحف، المبدوء بصورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس"**. وهذا التعريف هو تعريف إسلامي حيادي، يقتصر على وصف المشار إليه كما هو في المجال التّداولي الإسلامي، أي من دون صدور عن موقف مذهبي أو إيديولوجي، سواء من داخل هذا المجال، أو من خارجه. ج-**"إنّه كلام الله تعالى ووحيه المنزّل على خاتم أنبيائه محمّد -ص- المكتوب في المصحف، المنقول إلينا بالتّواتر، المتعبّد بتلاوته، المتحدّى بإعجازه"**.

كما يقدّم بعض التّعريفات للقرآن في السياق الثقافي الإسلامي مثل موقف المعتزلة من خلق القرآن... .

يضع "الجابري" جميع التّعريفات السابقة بين قوسين(لا ينفيها ولا يعارضها ولا ينشغل بها أيّ انشغال)، واضعا مكانها **تعريفا للقرآن نفسه بنفسه**، فهو يقدّم تعريفا للقرآن في القرآن. وهو يريد تجاوز هذه التّعريفات ليقدّم صورة جديدة عن القرآن، صورة يطرح فيها **مسار الكون والتّكوين للظّاهرة القرآنية** نفسها، معتمدا في ذلك على تعريف القرآن نفسه بنفسه، فهو يستند إلى بعض التّعريفات النّصية[4]، مثل قوله تعالى: **"وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ * وَ إِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ*"** [5]، وقوله أيضا: **"نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقَانَ *"** [6]. من خلال هذه الآيات التي تقدّم لنا تعريفا

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

للقرآن في القرآن، يحاول "الجابري" طرح **أسئلة الكون والتّكوين** لما يسمّيه ب: الظّاهرة القرآنية. فعن مسار كون وتكوين القرآن الكريم، يرى أنّه نزل منجّما، أي خرج إلى مجال الوجود البشري بصورة متدرّجة، ومن هنا طريقة أخرى في التّعريف به، تبدأ ليس انطلاقا من وضعه الحالي كنص بين دفّتي المصحف، بل من محاولة فهم المراحل التي قطعها منذ بداية نزوله حتى أصبح كما هو الآن في المصحف، " **إنّ هذا النّوع من التعامل يهتمّ بالتعرّف على كيان النّص، وذلك من خلال رصد عملية نموّه الدّاخلي من جهة، ومن خلال تتبّع الكيفية أو الكيفيات التي تمّ التعامل بها معه خلال مسيرته نحو اكتمال وجوده بين الناس كنص نهائي مصون عن الزّيادة والنّقصان**"[7]. وهذا هو موقف المفسّرين القدامى وما أنتجوه من علوم القرآن.

يرى "الجابري" أنّ القرآن الكريم نزل منجّما، أي مقسّما على مدى يتراوح بين عشرين وثلاث وعشرين سنة، وإنّ هذه المدّة هي جزء فقط من عمر جيل واحد، وبالتالي فقد بقي على قيد الحياة معظم الذين باشروا كتابته منذ البداية وكثير من الذين حفظوه في صدورهم من ابتداء نزوله إلى نهايته قبيل وفاة الرسول. وعندما جمع القرآن في المصحف الذي بين أيدينا اليوم، زمن الخليفة عثمان، تمّ ذلك بحضور كثير من الصحابة، كان في مقدّمتهم عدد من كتّاب الوحي وقرّاؤه.[8] وفي هذا، طرح المفسّرون من مختلف الاتّجاهات وعلى مرّ العصور أسئلة الكون والتّكوين[*]، فألّفوا في علوم القرآن. ومع هذا الاهتمام الزائد بموضوع "أسئلة الكون والتكوين" الخاصة بالقرآن، يجد "الجابري" نفسه مطالبا بتجديد طرح كثير من الأسئلة التي طرحت سابقا وفسح المجال لأسئلة أخـــرى تطرحـها اهتمامــات

عصرنا الفكرية والمنهجية، **"لأنّه بغى تجديد التفكير في الأسئلة القديمة وطرح أخرى جديدة لن يتأتّى لنا الارتفاع بمستوى فهمنا للظاهرة القرآنية إلى الدّرجة التي تجعلنا معاصرين لها وتجعلها معاصرة لنا"**[9]، **فما معنى الظّاهرة القرآنية؟**

إنّ ما يقصده "الجابري" بالتّعريف بالقرآن ليس التعرّف على القرآن، بل هو **كيف نعرف القرآن؟** أو المعرفة بالقرآن. والمعرفة هي أعمق من التّعريف، أي معرفة القرآن كما هو في تاريخيته وفي مضمونه، في كلّ ما يمكن التعرّف عليه. وهو يتعرّف على القرآن باعتباره ظاهرة ثقافية.

وما يقصده "الجابري" بالظاهرة القرآنية ليس فقط القرآن كما يتحدّث عن نفسه في الآيات التي ذكرها من قبل، بل يدرج فيها أيضا مختلف الموضوعات التي تطرّق إليها المسلمون وأنواع الفهم والتصوّرات العالمة التي شيّدوها لأنفسهم قصد الاقتراب من مضامينه ومقاصده[10]. وهذه الموضوعات هي علوم القرآن خاصة المتمثّلة في: المكّي والمدني، أوّل ما نزل، آخر ما نزل، أسباب النزول، معرفة ما نزل مفرقا وما نزل جمعا، في جمعه وترتيبه، في المحكم والمتشابه، في الخاص والعام، في النّاسخ والمنسوخ... .الخ.

2.3. ماهية القرآن.

يتحدّث "الجابري" عن القرآن الكريم ليس كنص بألفاظه ومعانيه فقط كما هو مدوّن في المصحف، بل يتحدّث عنه بالنّظر إلى مسار كونه وتكوّنه عبر التاريخ وبالتساوق مع السّيرة النبوية، حيث ينتقل في القسم الثاني من كتابه: "مدخل إلى القرآن الكريم" إلى التعرّف على –ليس محتواه فذلك ما سيكون موضوع الجزء الثاني من هذا الكتاب- مسار كونه وتكوينه، منذ ابتداء نزوله منجّما إلى أن انتهى إلى المصحف الذي بين أيدينا وانطلاقته كانت من التساؤل التالي: **ما معنى القرآن؟**

يورد بداية معاني القرآن(قران-قرآن) في تصوّر علماء القرآن ويقرّ بأنّ تأويلاتهم هي بعيدة عن المعنى الظاهر للكلمة والذي تذكره كتب اللغة: فالقرآن لغة، من قرأ يقرأ وقرآنا، مثل رجح رجحانا وغفر غفرانا... .، وهذا ما تزكّيه أوّل آية نزلت: **"اقْرَأْ**

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ"[11] مخاطبة النبي –ص-، فكان ردّه: "ماذا أقرأ". أضف إلى ذلك قوله تعالى:" **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ *"**[12] . وبهذا الاعتبار، يكون لفظ "القرآن" عندما يراد به ما بين دفّتي "المصحف"، موازيا لمصطلحي "القراءة" و"التّلاوة" عندما يراد بهما محتوى مقروء الكتاب الذي يقرأ فيه الأطفال القراءة، بالمعنى الواسع للكلمة (من التهجّي إلى القراءة المبيّنة المنغّمة الموجودة).[13]

هذا عن المعنى اللّغوي حسب تصوّر "الجابري"، أما عن معناه الشرعي الذي يعني كلام الله المقروء أو المتلو بلسان عربي مبين، فإنّه يستند في ذلك إلى نصوص دينية (المرجعية الدينية)، منها قوله تعالى: "**بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ**."[14]، وقوله: " **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ *فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ**". ولفظ القرآن هنا استعمل بمعنى القراءة. بهذا يرجّح "الجابري" أن تكون هذه الآية هي أوّل آية ذكر فيها لفظ القرآن، لكون هذا اللّفظ قد أستعمل هنا كمصدر بمعنى القراءة، وكما هو شأن القرآن في القراءة بالتدرّج، فقد تمّ الانتقال بلفظ القرآن من هذا المعنى اللغوي الذي يعني مجرّد القراءة إلى المعنى الشرعي الذي يعني كلام الله المقروء أو المتلو بلسان عربي مبين[15].

ويستقرّ لفظ القرآن كاسم على الوحي المحمّدي، أما الأسماء الأخرى(ذكرى، ذكر، تذكرة، وحديث) التي وردت في القرآن، فهي أوصاف للقرآن أو أسماء شارحة له. ويتقرّر هذا الاسم في سورة - ق - حيث أختتمت بآية تدعو الرسول–ص- إلى التّذكير بالقرآن: " **فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ** "[16]. وهكذا فما كان به الذكر والتذكرة والذكرى، وما كان حديثا وقرآنا (أي مقروءا)، أصبحل له اسم محدّد، اسم علم، هو القرآن[17]. إنّ هذا القرآن هو الوحي بجميع أجزائه، الذي يقرأه جبريل على النّبي محمد ليبلّغه للناس.

ثمّ كان اسم جديد للقرآن(الكتاب) وهو الفرقان الذي يفرّق بين الحق والباطل، وأوّل شيء تميّز فيه السورة هو العقيدة المحمّدية في مقابل عقيدة المشركين، إذ يقول تعالى: **"تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا * وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا".**[18]

ويخلص "الجابري" وهو يرصد مسار الكون والتّكوين في القرآن إلى أنه بدأ ذكرا وحديثا وانتهى قرآنا وفرقانا. ومع انتشار الدعوة المحمّدية والجماعة الإسلامية في مكة، صار القرآن كتابا كذلك، نقل العرب من أمّة أمّية ليس لها كتاب (يقرّر العقيدة والقيم) إلى أمّة صار لها كتاب سماوي.

هذا، وينظر "الجابري" إلى الخطاب القرآني على طبيعتين: النّصية الإلهية ولسانية "عربية اللّسان"، فهو يميّز بذلك بين النّص الديني في حدّ ذاته كنص إلهي واللّغة التي نطق بها النص وهي التي تنتمي إلى مجال التداول العربي وإلى البيئة الثقافية والاجتماعية للعرب. وهو يعتمد في دراسته للنّص باعتباره منتوجا لغويا ارتبط بثقافة معينّة، ولتحليل الظاهرة الدينية باعتبارها ظاهرة اجتماعية ثقافية نزلت حسب معهود العرب اللغوي والثقافي، على نفس العدّة المنهجية التي اعتمدها في تحليل العقل العربي، وهي المنهج البنيوي، والمنهج التاريخي.

وللظّاهرة القرآنية في تصوّر "الجابري" بدايتين: أزلية وتاريخية، مصداقا لقوله تعالى: **"وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ .وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ"** (سورة الشعراء:192-196). وبالنظر إلى الآية النّصية: **"وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ"** بدايتين: بداية زمنية تاريخية تشير إليها الآية:**" بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ"** وبداية أزلية لا زمانية تشير إليها الآية: **"وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ"** والزّبر هي الكتب.

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

إنّ القرآن في تصوّره هو وحي من الله، حمله جبريل إلى محمد –ص-بلغة العرب، وهو من جنس الوحي الذي في كتب الرّسل الأوّلين. هذا يعني أنّه ليس جديدا كلّ الجدّة، بل هو استمرار للخطاب الإلهي إلى البشر، يقول تعالى: **"وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِير"**[19]، أي التوراة والإنجيل. كما يعني من جهة أخرى تجربة روحية تتلخّص في تلقّي الوحي **"نزل به الرّوح الأمين على قلبك"**، وأنّه من جهة ثالثة رسالة تجعل حاملها **"من المنذرين"**، المبيّنين للناس ما هو حق وما هو باطل، وتجعله بالتالي في مواجهة معهم. وهكذا تنضاف إلى التّجربة الروحية (تجربة تلقّي الوحي) تجربة اجتماعية إرشادية دعوية[20]. هناك إذن أبعاد ثلاثة في الظاهرة القرآنية، بعد لا زمني يتمثّل في علاقتها بالرسالات السّماوية، وبعد روحي يتمثّل في معاناة النبي لتجربة تلقّي الوحي، ثم بعد اجتماعي دعوي يتمثّل في قيام النبي بتبليغ الرسالة وما بترتّب على ذلك من ردود الفعل.

إنّ مفهوم الظّاهرة القرآنية(النبوّة تحديدا) والبحث في أبعادها موضوع قديم، عبّر عنه القدماء بدلائل النبوة. لكن "الجابري" يريد أن يقدّم قراءة معاصرة لهذه الظاهرة، فهو مفهوم معاصر يعطي عدّة دلالات، بمعنى أنه يوظّفه كمفهوم إجرائي لقراءة النبوّة قراءة معاصرة، فنحن نتحدّث عن الظاهرة الطبيعية والظاهرة الاجتماعية والظاهرة الثقافية...و**"إذا أردنا أن نستحضر في أذهاننا علاقة القرآن بهذه الظّواهر مثلا، فإنّ مفهوم الظاهرة القرآنية يفي بالغرض، غرضنا، المعاصر لنا، أكثر ممّا يفي به مفهوم دلائل النّبوة كما وظّفه القدماء."**[21]

إنّ طبيعة القرآن عند "الجابري"، هي الظاهرة القرآنية مثل الظواهر الثقافية الأخرى. وهذه الظاهرة **"وإن كانت في جوهرها تجربة روحية نبوّة ورسالة، فهي في انتمائها اللّغوي والاجتماعي والثقافي ظاهرة عربية، وبالتالي يجب أن لا ننتظر منها أن تخرج تماما عن فضاء اللّغة العربية، لا على مستوى الإرسال ولا على مستوى**

التّلقي"[22]. بهذا، يوظّف "الجابري" منهجية النقد الأدبي التي تتأسّس على نظرية التلقي في قراءته للنص الديني. إنّه لابدّ من الانطلاق في فهم الظاهرة القرآنية من منطلق أنّها نزلت بلغة العرب وفي إطار معهودهم الاجتماعي والثقافي، على اعتبار أنّ معهود العرب بكلّ جوانبه أمر ضروري لنا لجعل القرآن "معاصرا لنفسه" تماما مثلما أنّ تعاملنا مع هذا المعهود بكلّ ما نستطيع من الحياد والموضوعية، هو الطريق السليم– في نظر الجابري- لجعل القرآن معاصرا لنا أيضا، لا على صعيد التجربة الدّينية فحسب فذلك ما هو قائم دوما، بصورة ما، بل أيضا على صعيد الفهم والمعقولية.[23]

إنّه يتحدّث عن الظاهرة القرآنية باعتبارها مفهوما إجرائيا، على غرار الظاهرة الطبيعية والظاهرة الثقافية والظاهرة الاجتماعية. وهي ترتبط بمعهود العرب اللّغوي والاجتماعي والسّياسي، وانتهاء بمعهودهم الثقافي والحضاري العام. لذلك لابدّ من قراءة القرآن وفق مجاله التداولي الأوّل، وإعادة ترتيبه وفق السياق التاريخي لمناسبات نزوله. لذلك، فالخطاب القرآني هو خطاب مفتوح للفهم وللتّفسير شريطة الاحتكام إلى مجاله التّداولي من جهة، وإلى إعمال العقل فيه من جهة أخرى، بعيدا عن وصاية الفقهاء، وحيلهم المحكومة بالتعالي والإدّعاء الاحتكاري، والتّقويل والتّأويلات المغرقة التي ليست فيه ولا من طبيعته.

4. المنهج في قراءة الظاهرة الدّينية.

يحاول "الجابري" عقلنة النّص الدّيني بتطبيقه مناهج تراثية وأخرى مناهج غربية (مناهج العلوم الإنسانية) في قراءته لهذا النّص، حيث يسعى مثلا إلى قراءة نقدية لمختلف الرّوايات والمصادر التاريخية، إضافة إلى تبنّيه لمناهج علمية/ موضوعية يقارب بها النّص بعيدا عن ضلال الانتماء العقدي، وهو المنهج البنيوي والمنهج التّكويني(التاريخي). وهو يهدف من تطبيق المنهجية التّكوينية في النّص إلى تجديد التفكير في الأسئلة القديمة[***] وطرح أخرى جديدة، وذلك من أجل: **"الارتفاع بمستوى فهمنا للظاهرة القرآنية إلى الدّرجة التي تجعلنا معاصرين لها، وتجعلها**

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

معاصرة لنا" [24] ، وهي المنهجية نفسها التي تبنّاها في قراءة التراث من خلال مؤلّفاته: "نحن والتراث"، "تكوين العقل العربي"، و"بنية العقل العربي".

إنّه يعتمد في دراسته للقرآن مرجعيات عربية أصيلة تعود إلى مراجع من التراث الخاصة بمنهجية التفسير، منها: "مجاز القرآن"و"معاني القرآن"، وبعض التفاسير مثل:"جامع البيان في تفسير القرآن للطبري"(225-310هـ) "التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب من القرآن الكريم" لفخر الدين الرازي(544-606هـ) و"الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجه التّأويل" لأبي القاسم الزمخشري(467،538هـ)، و"الإتقان في علوم القرآن" و"الدّر المنثور في التفسير المنقول" و"لباب النّقول في أسباب النّزول" لجلال الدين السّيوطي(ت: 911هـ)، و"تفسير مقاتل بن سليمان" لأبو الحسن مقاتل بن سليمان(ت:150هـ/767م).

وهو يستند إلى المرجعية التّراثية، يعتمد على المصادر الإسلامية القديمة منها خاصة، والمتمثّلة في الرّوايات العربية على الرغم من اختلاف الرّؤى في التفسير. إنّها المصادر التي تتحدّث عن الظاهرة القرآنية. ويعتمد في قراءته للقرآن منهجية اعتمدها المفسّرون والتي تندرج في قراءة القرآن باعتباره معاصرا لنفسه، وهي منهجية القرآن يشرح بعضه بعضا. بالإضافة إلى منهجية التّعامل مع القرآن على مستويين: مستوى نزوله مفرقا، أو حسب ترتيب المصحف. هنا لابدّ من التّمييز منهجيا بين أمرين: النص القرآني كما هو مجموع في المصحف من جهة، والقرآن كما نزل مفرقا، أي حسب ترتيب النّزول من جهة أخرى. ومن ثمّ التّعامل مع كل موضوع يطرحه، بشأن القرآن، بحسب طبيعته، فإن كان ممّا ينتمي إلى النّسبي والتّاريخي يرجع به إلى ترتيب النّزول، وإن كان ممّا ينتمي إلى المطلق و اللّازمني يطرحه على مستوى القرآن ككل بوصفه يشرح بعضه بعضا ويكون الحكم فيه "قصد الشارع-الله-" وليس الزمن والتاريخ، وهذا لا يمنع من اعتماد المستويين معا حسب ما يقتضي الموضوع ذلك. وأما التعامل مع قرآن المصحف فهذا لا يطرح أي إشكال، إذ يمكن أن

يعتمد في مسألة من المسائل على نص من هذه السورة أو تلك ويبحث عن نصوص تشرحه أو تساعد على فهمه، ويمكن أن يجمع نصوصا، ويستخلص منها ما تشترك من أحكام وأخبار. وأما التعامل مع القرآن بحسب ترتيب النّزول، فهذا يتطلّب تبنّي نوع من الترتيب للسور وهذا أمر صعب. أما ترتيب الآيات داخل السّور فهذا ما أجمعت المصادر على أنّه توقيفي بمعنى أنّه من عمل النبي نفسه، فلا مجال للاجتهاد فيه.[25]

ويختار التّعامل مع القرآن حسب ترتيب النّزول، إنّه **المنهج التاريخي** في قراءة القرآن، والهدف من هذه **القراءة التاريخية** هو محاولة إقامة التطابق بين نزول القرآن والسّيرة النّبوية، لأنّ حياة الرسول والقرآن متّسقان، فهو يؤكّد في مقدّمة كتابه: "مدخل إلى القرآن الكريم" على أنّه لن يأتي بجديد في علوم القرآن، بل يحرص على إعادة الأسئلة القديمة وما دار حولها في الكتب التراثية التي اختصّت بكتب القرآن(علومه)، وما يترتّب على هذه الدّراسة من طرح لتساؤلات أخرى معاصرة، الهدف منها "جعل المقروء معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا"[26]، وهو المنهج التاريخي الذي وظّفه في قراءة التراث من خلال كتابه: "نحن والتراث" كما بيّنا سابقا. إنّه يشكّك في القرآن لبلوغ اليقين، وليقدّم قراءة تاريخية عنه، فهو ينطلق من منهجية صرّح بها في هذا الكتاب: **"جعل المقروء معاصرا لنا ولنفسه"**، لكن أسلوب العرض وطريقة التّبليغ والأسئلة التي نطرحها نحن ممّا يشغل عقولنا، يجعل القرآن معاصرا لنا.

إنّ القراءة الحداثية للقرآن الكريم هي محاولة فهم النّص القرآني من خلال دراسة الظروف التاريخية له، وأثرها على واقع النص، وبالتالي إعادة تحديد المكانة اللّغوية والأنثروبولوجية للنّص. إنّها محاولة فهم المراحل التي قطعها النص القرآني منذ بداية نزوله حتى أصبح على ما هو عليه الآن في المصحف. فالقرآن في تصوّر "الجابري" نزل في مدّة 23 عاما، وخلال هذه السنوات كان ينزل مرّة آية أو آيات ومرّة سورة، وفي الغالب كانت هناك "أسباب النزول"، أو "مناسبات للنّزول"، وهي وقائع

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

اجتماعية حياتية، الشيء الذي يجعل نزول القرآن متساوقا مع تطوّر الدّعوة المحمدية ووقائع السّيرة النّبوية، بمعنى أنّ الواحد منها يشرح الآخر. ومن هنا ارتأى "الجابري" أنّ الطريق إلى معرفة القرآن هو التّعامل معه على أساس ترتيب النزول لسوره. أما المفسّرون فقد انساقوا في تفاسيرهم مع ترتيب المصحف، فيبدؤون من سورة البقرة (بعد الفاتحة) ليفسّروا ما تلاها في المصحف. هذا بينما واقع الحال أنّ البقرة هي تتويج للقرآن. إنها قراءة تاريخية يقدّمها "الجابري" عن القرآن، الغرض منها محاولة إقامة تطابق بين نزول القرآن والسّيرة النبوية، لأنّ حياة الرسول-ص- ونزول القرآن متّسقان. وهذا التساوق غفل عنه كبار المفسّرين حين يفسّرون آية من الأعراف أو البقرة أو غيرهما، وكأنّها آية منفصلة. وإذا تكلّموا عن الأسباب، تكلّموا عن واقعة معيّنة مقطوعة عن سياقها التاريخي. ما نلاحظه هنا أنّ "الجابري" يعمل على تبيئة منهجا من مناهج العلوم الإنسانية وهو المنهج التاريخي في عملية تأويل النّص الديني.

وفي هذا السّياق المنهجي، يقسّم "الجابري" النص القرآني إلى عدة مراحل، حسب ترتيب النزول، فقد قسّم القرآن المكّي بوصفه قرآن دعوة، إلى ستة مراحل، أما القرآن المدني، بوصفه "قرآن دولة" فهو مرحلة واحدة. وكل مرحلة من تلك المراحل تفتتح باستهلال على شكل تمهيد تأطيري، يذكر فيه "الجابري" الموضوعات التي تتحدّث عنها، فضلا عن ذكر أغلب السّور التي تنتمي إليها، وتختتم باستطراد يتعلّق بالموضوع الذي ركّزت عليه السّورة، والذي كثر فيه الاختلاف بين أرباب الرّأي[27]. وكلّ سورة من سور أيّة مرحلة يتم تناولها من طرف "الجابري"، في ضوء ثلاثة عناصر:

-**تقديم:** وهو عبارة عن عرض مختصر للسّورة، بالتركيز على ذكر أسباب النزول، فضلا عمّا يقوله بعض المفسّرين المعتمدين من قبل "الجابري".

-**الهوامش:** وهي عبارة عن إيراد فهم خاص بمفسّر ما، أو ملاحظات يوردها "الجابري" حسب فهمه وترجيحه.

-**التّعليق:** وهو عبارة عن خلاصات مركّزة يسطّرها المتن "الجابري" في ضوء ما سلف.[28]

ما نلاحظه أنّ المنهج الجابري في فهم نص القرآن هو "منهج تساوقي" الذي يشترط ضرورة العودة إلى النص القرآني بعيدا عن كلّ ما نشأ في ظلاله، لفهمه على أساس ترتيب النّزول، وليس على أساس ترتيب المصحف/التلاوة، كما فعل مجمل المفسّرين الذين تعاملوا مع كتاب الله "بشكل مقلوب"، فتوصّلوا إلى دلالات مخالفة لمنطق القرآن، وهذا راجع إلى التعامل معه على أساس ترتيب المصحف/التلاوة. و"الجابري" يرى نفسه بأنّه: **"انفرد ببناء فهم جديد على أساس ترتيب النّزول"**[29]، لأنّ فهمه على هذا الأساس، يمكّن من عرض القرآن وفهمه بشكل متّصل، مع استحضار منهج المساوقة/المطابقة بين مسار التّنزيل، ومسار السّيرة النّبوية، فهو يعتمد على "مراعاة السياق بنوعيه، مراعاة التساوق بين مسار التنزيل ومسار السّيرة، مراعاة وحدة السّورة، وأخيرا مراعاة التقسيم المرحلي لمسار التّنزيل"[30]. إنّها **القراءة التاريخية والبنيوية للنص.**

هذا المنهج التّساوقي الذي يطبّقه "الجابري" في قراءة القرآن، يهدف من خلاله إلى تحقيق: قراءة القرآن بالسّيرة، وقراءة السّيرة بالقرآن، لجعل القرآن معاصرا لنفسه ومعاصرا لنا، بغية رصد التموّج الدّاخلي لبنية الأفكار والموضوعات القرآنية بعيدا عن أيّ مسبقات.[31]

-**القرآن الحكيم يشرح بعضه بعضا**، ذلك أنّ نص القرآن مجموعة من الأقاويل، إلا أنّها تنتظم في معنى كلّي، تستقي منه الأجزاء نسب معانيها، بمعنى أنّ الكلّي يحتوي الأجزاء ويتركّب منها، في حين أنّ الجزئي يفهم موضوعيا في ضوء الأمر الكلّي، والرابط بين المعنى الكلّي والمعنى الجزئي على مستوى الفهم، هو السّياق، بوصفه فضاء يجمع آيات متفرّقة داخل السّورة، أو عدّة سور في نسق وحدوي.[32] إنّه المنهج

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

البنيوي في قراءة القرآن، مع مراعاة الظروف التاريخية لزمان نزول القرآن والحالة الاجتماعية لمكان النّزول.

وهو يدعو بذلك إلى ضرورة العودة بالقرآن الكريم وبالإسلام إلى فطرته الأولى، بعيدا عن العالق به من التّوظيفات الإيديولوجية سواء من الداخل أو من الخارج التي تسلخ القرآن عن سياقه التكويني وتنزعه من مجاله التّداولي، فتحوّله إلى قطع غيار توظّف بحسب الحاجات الطارئة. فهو يريد أن يخلّص الخطاب القرآني من تأويلات يعتقدها مغرضة ومحكومة بحسابات سياسية وإيديولوجية، ويقترح قراءة جديدة محايثة للنّص القرآني في ذاته ولذاته في خطوة أولى(المنهج البنيوي)، ثمّ يفتحه في خطوة ثانية على محيطه(ترتيب النزول)، ومراعاة معهود العرب اللّغوي والحضاري (المقاربة التاريخية للنص)، بهدف من وراء ذلك إلى فهم جديد للدين، عقيدة وشريعة، انطلاقا من الأصول مباشرة، والعمل على تحيينه، أي جعله معاصرا لنا وأساسا لانطلاقتنا ولنهضتنا.

5. تأويل الظّاهرة الدينية:

يظهر تأويل النص الديني في فكر "الجابري" من خلال مزاوجته بين المنهج التاريخي والمنهج البنيوي في قراءته الظاهرة الدينية. ولتوضيح ذلك نأخذ بنموذج من المسائل التي عالجها: مسألة القصص القرآني.

إنّ النّصوص القرآنية المتعلّقة بالقصص تمّت دراستها قديما وحديثا من زوايا نظر مختلفة في سياق إشكالية طبيعة القصّة بين الحقيقة والوهم، **فما هي نظرة "الجابري "للقصة القرآنية؟**

إذا كان "الجابري" في القسم الثاني من كتابه: "مدخل إلى القرآن الكريم" يؤكّد أهمّية اعتبار التّساوق بين الدّعوة المحمدية و"مسار الكون والتّكوين في القرآن"، فإنّ هذا التّساوق يتجلّى بأوضح صورة من خلال تتبّع **تطوّر القصص القرآني حسب ترتيب النّزول** . فعن المنهجية التي يقترحها لقراءة القصص القرآني تتحدّد

في الاعتماد على ترتيب النّزول بدل ترتيب المصحف، الاقتصار على المادّة التي يقدّمها القرآن دون سواه، والاعتماد على التّوراة والإنجيل مادام أنّ القرآن مصدّق لما بين يديه، خصوصا على مستوى القصص .فهو ينطلق من أنّ القرآن عامة، والقصص القرآني خاصة لا يمكن أن يفهم موضوعيا إلّا بالتوسّل بترتيب النّزول، وليس بترتيب المصحف، مع ضرورة الأخذ بعين الاعتبار "مسار الدّعوة "ومسار تكوّن القرآن بالتّساوق، بمعنى قراءة القرآن بالسّيرة وقراءة السّيرة بالقرآن، فضلا عن التعرّف على البناء الداخلي للنّص القرآني . وكذا الوقوف على معالم النّظرية القرآنية في الدّعوة والتّغيير . فكلّما تمّ استحضار أسباب النّزول ومسار السّيرة/الدعوة المحمّدية، كان ذلك أدعى للفهم المرحلي الموضوعي للقصص القرآني.

ويرى" الجابري "أنّ الفهم الأمثل المتجاوز لأخطاء فهم السابقين للقصص القرآني، تعيّن أن يتمّ بالاعتماد على المادة التي يقدّمها القرآن فقط، مادام أنّه يفسّر بعضه بعضا تكميلا وتنسيقا[33] ويرى أيضا في تأكيده على أنّ القرآن وإن شهد على العهد القديم /التّوراة والعهد الجديد /الإنجيل بكونهما دخلهما التّحريف المادّي زيادة ونقصانا، فهو متحقّق على مستوى العقيدة فقط، فما عاداها فالقرآن مصدّق لما بين يديه منهما، ذلك أنّ جل ما يقصّه القرآن يتوافق مع ما هو موجود في التّوراة والإنجيل، والعلاقة بينهما هي علاقة اللاّحق والسابق مادام أنّ الغرض واحد، مستشهدا بقوله تعالى": **فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ** ۚ"[34]،والفرق يكمن في أنّ القرآن نزل بلغة عربية، قصد إفهام المخاطبين به زمن النّزول في إطار معهودهم، وهذا هو مجال الإبداع والأصالة في القصّة القرآنية[35].

هذا على مستوى المنهج، أما على مستوى الموقف، فيتحدّد موقف "الجابري " من خلال ربطه القصص القرآني بالتاريخ، **فماهي علاقة القصة القرآنية بالتاريخ الإنساني؟**

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

يرى" الجابري "أنّ القرآن الكريم في قصصه جاء كأمثلة لا حقيقة لها وأنّها ليست تاريخا علميا بل هي قصص للدّعوة وللعبرة، حيث يقول: **"القصص القرآني هو نوع من ضرب المثل، والمثل لا يضرب لذاته ولا من أجل ذاته، بل من أجل البيان، من أجل العبرة، من أجل البرهنة على صحّة القضية التي يستشهد فيها بالمثل".**[36]

إنّ القصّة القرآنية هي عبرة، فهو يربطها بالتاريخ المقدّس، ذلك أنّ مكمن الحقيقة في القصص القرآني لا يكون إلّا في شيء واحد، هو العبرة، فكلّما أفادت القصّة القرآنية عبرة فهي حقيقية، وإلّا وهمية أو أسطورية . والصّدق فيها لا يبحث عنه في مطابقة أو عدم مطابقة ما يرد فيها من أحداث وأشخاص للواقع التّاريخي، بل مرجعه إلى مخيال المستمع ومعهوده، فإذا انفعل بها المستمع، فهي صادقة حقّا وحقيقة، أما صدقها في ذاتيتها فلا يكون موضوع سؤال، لأنّ القصّة القرآنية لا علاقة لها بالتاريخ بالمعنى المعاصر، بل هي تنتمي إلى التاريخ المقدّس[37]. إذن، فمن شروط صحّة القصّة القرآنية هي أن تحمل عبرة مؤثّرة على المتلقّي فضلا عن أنّها تراعي المعهود العربي وقت النّزول.

إنّ القصص القرآني في تصوّر" الجابري "**عبر**"، فهي من" باب ضرب المثل " الذي جاء في سياق خدمة الدّعوة المحمّدية، إنّه يتطوّر طولا وقصرا وشدّة وتخويفا، بالتزامن مع تطوّر الدّعوة المحمّدية . فحاضر القصص القرآني، هو نفسه حاضر الدّعوة المحمّدية، منظورا إليه من خلال كفاح الأنبياء من أجل التّبليغ، إذ كلّما استمرّ الذي كفر في التّكذيب والمعاندة، بيّن الله ما أصاب نظيره من الأقوام الماضية التي كفرت وكذّبت الرسل السابقين وناصبتهم العداء وجيّشت عليهم الناس، وهذا كما يرى" الجابري" من" باب التّسلية والتّثبيت"، بأنّ الرسول– ص -والذين آمنوا معه منتصرون حقيقة في نهاية الأمر، وذلك كلّه من" باب القياس والاعتبار"[38]، مصداقا لقوله تعالى: **هو الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ**

مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ. مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا . وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ . يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَ أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٢﴾ [39]

ثمّ إنّها ترتبط بالدّعوة المحمّدية، ذلك أنّ آيات القصص بقدر ما تلقي الضّوء على جانب هام من محيط هذه الدّعوة، بقدر ما تجعل من القرآن" خطابا جدليا موجّها إلى خصوم الدّعوة". فهو إذن بمثابة مرآة ترى فيها الدّعوة نفسها، حاضرها ومستقبلها .بناء عليه، فهي تعكس وجها هاما من الأحداث التاريخية، سواء زمن النّزول، أو زمن الأنبياء السّابقين . وتبقى القصّة القرآنية ذات وجهين : وجه تاريخي، ووجه متعالي فوق تاريخي، ينطبق على كلّية التاريخ الإنساني.

ثمّ إنّ القصص القرآني كما يرى" الجابري "**تحذير وبرهان** للذين كذّبوا الرسول -ص -وعاندوه وآذوه . إنّ تحذير مكذّبي الدّعوة كان يتمّ بأسلوب غير مباشر من خلال ما يقصّه تعالى من قصص السّابقين . والهدف من ذلك، هو إبعادهم عن إلحاق الأذى بالرّسول والذين آمنوا به، ووسيلة من وسائل الدّعوة، حيث كان يركّز على النتائج الوخيمة للتّكذيب وللمكّذبين وخصوصا قصص أهل القرى وعاد وثمود ... التي تدخل ضمن المعهود العربي وقت النّزول، والتي كما ينصّ الجابري " كانوا على" معرفة بهم"[40]

هذا، ويتصوّر" الجابري "القصص القرآني **برهان**، فهي برهان وبيان ووسيلة للإقناع من أجل توسيع قاعدة الدّعوة المحمّدية، والكف عن التّعذيب والأذى . وكلّ ذلك يتمّ من خلال" الاحتكام إلى العقل " والابتعاد عن أساليب اللّاعقل".

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

6 .الخاتمة:

إذا كان الهدف من القراءات المعاصرة للنّص الدّيني هو تجديد الصلة بالنص الشرعي لإثراء الفكر والوجود الإسلامي والإنساني معا. فإنّ "الجابري" يحاول تقديم فهم جديد للقرآن على ضوء إعادة ترتيب النّص القرآني حسب النّزول، بناء على مرويات أسباب النّزول ونقد بعض التّفسيرات الإيديولوجية. وهو يشترط أثناء قراءة النّص مراعاة واحترام خصوصية النّص القرآني والطابع المهيمن عليه وهو الطابع العقلي، إذ لا وجود لما هو إيديولوجي في تفسيره. لذلك وجدناه يوظّف المنهج التاريخي ومعه المنهج البنيوي في قراءة الظاهرة الدينية. إلى جانب بعض المفاهيم في هذه القراءة، مثل: فهم النّص، زمن النّزول، زمن التأويل أو التنزيل، النّاسخ والمنسوخ، أسباب النّزول، اللّسان العربي، السّياق النّصي، المحكم والمتشابه... . ، يحاول من خلالها تقديم فهم جديد للتّنزيل الحكيم حسب ترتيب النّزول الذي اختاره، وهو بذلك يسعى لأن يكون موضوعيا/ داخليا من خلال مراعاة السّياق وترتيب النّزول، وإلى إعطاء فهم موضوعي عقلاني للنّص الشرعي وفق رؤية تاريخية وكلّية له. ولكن استعانته بما هو خارجي كمراعاة المعهود العربي بنوعيه، وكذا للموروث السّابق على نزول القرآن يجعله فهما خارجيا/ إسقاطيا، وهذا خلل منهجي يقع فيه مفكّرنا.

وهو يوظّف المنهجية التّساوقية في قراءة القرآن، قراءة القرآن بالسّيرة، وقراءة السّيرة بالقرآن بوصفهما متداخلين تداخلا عضويا، هذه المنهجية تعدّ آلية من عدّة آليات أخرى سعى من خلالها "الجابري" إلى تقديم فهم موضوعي "من الدّاخل" بعيدا عما هو خارجي. ولكن "السّيرة النّبوية" التي عدّها وسيلة لكشف مكنونات وأركان النّص القرآني لم تدوّن بالتزامن مع تدوين القرآن، وقد خضعت لقانون التّضخم مع استمرار الزمن، فضلا عن أنّها في جزء منها ارتبطت بما هو تاريخي مرحلي.

ولئن كان "الجابري" يربط القصص القرآني بأسباب نزولها، وبالمعهود العربي الثقافي والحضاري زمن النّزول، وهذه دعوى مشروعة، لكن أغلب الآيات والسّور

القرآنية نزلت لغير سبب. وأنّ أسباب النّزول وإن توفّرت كمادّة على قلّتها، إلّا أنه نسبة كثيرة منها هي ضعيفة أو موضوعة كما ينصّ "الجابري" نفسه، وهذا تناقض يقع فيه.

في هذا السّياق النقدي، يكشف المفكّر الإسلامي محمد عمارة في كتابه: "ردّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم" عن الكثير من التّناقضات التي وقع فيها هذا الأخير في ربطه القرآن بأسباب النّزول، وهنا يستشهد ببعض النصوص الجابرية، منها قوله: **"لقد كان طبيعيا لكلّ من يريد فهم القرآن أو استنباط أحكام منه تغطّي المستجدّات، أن يشعر بالحاجة إلى معرفة ما أصطلح عليه بأسباب النّزول الأمر الذي يقتضي ترتيب السّور حسب نزولها"**[41] وهو يعلن أنّه لكل آية في القرآن سبب نزولها، ومن ثمّ فمن المشروع إعادة ترتيب القرآن كلّه وفق أسباب النزول، حيث يقول: "ولا نجافي الصّواب إذا قلنا مع بعض القدماء إنّه ما من آية في القرآن إلّا ومن ورائها سبب لنزولها"[42] إنّه يجازف بهذا القول، وها هو يعود ليقول: "...وقول بعضهم: إنّه ما من آية في القرآن إلّا ولها سبب لنزولها". إنّ عنصر المبالغة في هذه العبارة واضح، ذلك لأنّ ما هو متداول من أسباب النّزول ..قليل جدا بالنسبة لآي الذّكر الحكيم"[43] إذن، لقد نقض الجابري نفسه، وأقرّ بأنّ الآيات التي لها سبب نزول هي " قليلة جدا" بالنسبة لمجموع آيات القرآن.[44] الأمر الذي يدعو إلى التّساؤل: "كيف يتمّ تفسير كلّ القرآن وفق أسباب النّزول، بينما الآيات التي لها أسباب النزول قليلة جدا بالنسبة لمجمل آيات القرآن الكريم، أي كيف أقام الجابري "مشروعه –البدعة- على إعادة ترتيب القرآن وفق أسباب النّزول، والتي لا وجود لها بالنسبة للأغلبية الساحقة من آيات القرآن الكريم؟[45]

ومن الأخطاء التي وقع الجابري فيها أيضا هو إنكاره الصّدق التاريخي للقصص القرآني، وفي هذا يقول: "وفي نظرنا: فإنّ الصّدق في القصص القرآني، سواء تعلّق الأمر بالمثل أو بالقصة، لا يلتمس في مطابقة أو عدم مطابقة شخصيات القصة والمثل للواقع التاريخي، بل الصّدق فيه مرجعه مخيال المستمع ومعهوده، فلا معنى

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

لطرح مسألة الحقيقة التاريخية. إنّ الحقيقة التي يطرحها القصص العبرة، هي الدّرس الذي يجب استخلاصه.[46] هنا، يقع في التناقض حين يقول: "إنّ القصص القرآني ليس قصصا خياليا، بل هو قصص يتحدّث عن وقائع تاريخية تدخل ضمن معهود العرب"[47]

7 . الإحالات:

[1]- **قرآن كريم:** "سورة الصف"، الآية: 14

[2]- أنظر في تفصيل الموضوع: الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**،-**التعريف بالقرآن**- المصدر السابق، الفصل الأول: حول وحدة الأصل في الديانات السماوية الثلاث، ص.30-60

[3]- **المصدر نفسه**، ص.19

[4]- **المصدر نفسه**، الصفحة نفسها.

[5]- **قرآن كريم**: سورة الشعراء: الآيات:192-196

[6]- **قرآن كريم**: "سورة آل عمران"، الآيتان:3،4

[7]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم** ، المصدر السابق، ص.20

[08]- **المصدر نفسه**، ص.21

[(*)]- وهي غير أسئلة الأصل، لأن الأصل هنا وحي، والوحي ينتمي إلى منطقة التسليم والإيمان وليس إلى ميدان البحث والبرهان.

[09]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، المصدر السابق، ص.23

[10]- **المصدر نفسه**، ص.23

[11]- **قرآن كريم**، "سورة العلق"، الآية:1

[12]- **قرآن كريم**، "سورة القيامة"، الآيات: 16-19

[13]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**،-التعريف بالقرآن- المصدر السابق، ص.150

[14]- **قرآن كريم**: "سورة البروج"، الآية:19

[(**)]- قرآنه، أي: قراءته.

[15]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**،- التعريف بالقرآن- المصدر السابق نفسه، ص.153

[16]- **قرآن كريم**: "سورة ق"، الآية: 45

[17]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**،- التعريف بالقرآن- المصدر السابق، ص.154

[18]- **قرآن كريم**: "سورة الفرقان"، الآية: 1-3

[19]- **قرآن كريم**: سورة فاطر، الآية:31

[20]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، المصدر السابق، ص.24

[21]- **المصدر نفسه**، ص.25

[22]- **المصدر نفسه**، ص.27

[23]- **المصدر نفسه**، ص.28

[24]- **المصدر نفسه**، ص.232

[***] الأسئلة القديمة: مثل إشكال النّاسخ والمنسوخ، المحكم والمتشابه، العام والخاص، أسباب النزول... .

[25]- الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، المصدر السابق، ص.29

[26]- **المصدر نفسه**، ص.23

[27]- **المصدر نفسه**، ص.16

[28]- محمد كنفودي، **القراءات الجديدة للقرآن الكريم**- قراءة محمد عابد الجابري- (ط1، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016)، ص.84

[29]- الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، القسم الثاني، (ط1، دار النشر المغربية، عين السبع، الدار البيضاء، 2008)، ص.82

[30]- الجابري، **مدخل إلى القرآن**، المصدر السابق، ص-ص.383،384

[31]- **المصدر نفسه**، ج1، ص.15

[32]- الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، القسم الثاني، المصدر السابق، ج2، ص.238

[33]- **الجابري، مدخل إلى القرآن**، مصدر سابق، ص.258

[34]- **قرآن كريم:** سورة يونس، **الآية:** 94

[35]- **الجابري، مدخل إلى القرآن**، المصدر السابق نفسه، **ص.**392

[36]- **المصدر نفسه، ص.**258

[37]- **محمد كنفودي، القراءات الجديدة للقرآن**، مرجع سابق، **ص.**209

[38]- **الجابري، مدخل إلى القرآن**، المصدر السابق ، **ص-ص.260،261**

[39]- **قرآن كريم:** سورة الحشر، الآية: 02

[40]- **الجابري، مدخل إلى القرآن**، المصدر السابق نفسه، **ص.**262

[41]- الجابري، **التعريف بالقرآن**، المصدر السابق، ص.420

[42]- **المصدر نفسه**، ص.430

[43]- الجابري، **فهم القرآن**، ج3، مصدر سبق ذكره، ص.370

[44]- محمد عمارة، **ردّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم**، دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة، 2010، ص.44

[45]- **المرجع نفسه**، ص.45

[46]- الجابري، **التعريف بالقرآن**، المصدر السابق، ص-ص.258، 259

[47]- **المصدر نفسه**، ص.259

8.- المصادر والمراجع:

أوّلا: المصادر:

[1]- **قرآن كريم، برواية ورش.**

ISSN : 2602-7402
EISSN: 2676-1637

[2]- **محمد عابد** الجابري، **مدخل إلى القرآن الكريم**، ج1،-في التعريف بالقرآن-، ط1: دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 2006.
[3]- محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، القسم الثاني، ط1، دار النشر المغربية، عين السبع، الدار البيضاء، 2008.
[4]-محمد عابد الجابري، **فهم القرآن الحكيم**، القسم الثالث، ط1، دار النشر المغربية، عين السبع، الدار البيضاء، المغرب، 2009.

ثانيا: المراجع:

[1]- محمد كنفودي، **القراءات الجديدة للقرآن الكريم**- قراءة محمد عابد الجابري- ط1، مطبعة أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2016،
[2]- محمد عمارة، **ردّ افتراءات الجابري على القرآن الكريم**، دار السلام للنشر والتوزيع والترجمة، 2010.